من عيون الأدب الانجليزى

مرثية فى مقبرة ريفية

لتوماس جراى

للأستاذ محمد مندور

المدرس بكلية الآداب

ليست معرفتى « بجراى Gray » بنت الأمس . ولقد سمعت شباب الجامعة بكمبردج يرددون مقطوعاته، وفى جمال اطرادها ما ينسينى هوى نفسى وعهدى بها نزاعة إلى الجائش المضطرب اضطراب نزوات الحياة عند ما يسحق عمقها. ومن قديم وصف بوالو Boileau هذا النوع من الاضطراب الجميل بأنه منبع آيات الفنون

ولطالما سألت نفسى عن سر إصغائها إلى «جراى» على بعد البون بين ما ألتمس فى نفوس الشعراء وما جبل عليه هذا الصديق، فما وجدت جواباً غير راحة النفس المضناة تجد فى اطراد النغمات مسكناً لما يجيش فيها بالألم

وفى الحق أن الشعر الإنجليزى لا يعرف قصيدة أمعن من مرثية جراى فى اطراد الوزن ونقاء المبنى . فالقصيدة تنتظم رباعيات متعانقة القوافى متلاحقة التفاعيل فى غير زحاف ولا علة، بحيث ينطلق فيها البصر، والنفس تلاحقه فى يسر ينزل منها منزلة قطرات المطر تتساقط موقعة على زجاج نافذة، فإذا بالنفس قد هدأت وسكن جائشها إلى اطراد النغم . ومن منا يتردد إذن فى صداقة رجل كهذا؟

لم يعرف « جراى » ثورات النفس ولا مغامرات الهوى ، وفى انتظام حياته ما يملأ القلب إعجاباً ، فقد أنفق عمره يطلب العلم بكمبردج، وكأنى به يطلب إلى العلم سلوى عن طفولته البائسة. طفولة طفل يولد لأبوين متفاوتى المشارب حتى ليستحيل على أحدهما أن يسكن إلى الآخر

ولأمر ما يحلو لى دائماً أن أتصور « جراي » رقيق النفس رقة النسمات المتهافتة ؛ وفى ميوله ما يغرينى بهذا الظن ، فلقد أولع الرجل أشد الولع بأغانى Ossian تلك الأغانى الشعبية التى كانت ولا يزال يرددها سكان جبال إبقوسيا ، وساقه أوسيان إلى أساطير البلاد الشمالية يستلهمها سذاجة الشعر قانعاً بما تعطيه من بديهى المعانى دون ما يمكن ان يكون خلف ذلك من رمز بعيد

وما كان لجراى وتلك طبيعته أن ينصرف عن آداب روما وأثينا ونفوس منشئيها فى غضاضة نفسه يوم ابتسمت الإنسانية ابتسامة الطفل توقظه من مهده رقة الصباح ... نعم ابتسمت الإنسانية فملأت الطبيعة بخيالها الضاحك ، وإذا بعرائس الشعر ترقص فى كل مكان ، وإذا بعذب الأساطير يوقع نغمات ذلك الرقص

هامت نفس « جراى » فى هذا العالم المسحور فطرب لآثارهم أيما طرب وود أن لو كان من عشيرتهم فقال الشعر باليونانية وباللاتينية، حتى لأحسب هذا الطرب قد بلغ فى نفسه مبلغ الشهوة، ونحن فى ذلك لا نتجنى عليه ما دمنا نؤمن أن نفساً لا تعرف الشهوة لا يمكن إلا أن تعقم إن لم تتحطم

وأنفق جراى حياته بغير زوج ولا ولد بين جدران كمبردج يستمع إليها نفس من أنباء الماضى أجمل القصص، واطردت حياته على تلك الوتيرة حتى دلف إلى سكون الموت

عاشر جراى هومير وفرجيل، فرقت نفسه ، ونزعت إلى المثل الأعلى نزوع الطبع المصقول. واتفقت له أثناء ذلك رحلات رأى فيها من جلال الطبيعة ما يسمو بالقلوب قدر ما يلهب الخيال. وكلنا يذكر كيف قاد روسو تلميذه إلى قمم الجبال ليهديه السبيل إلى ربه

أتى « جراى » إلى الألب بفرنسا وحط رحاله إلى جوار « جرينوبل » حيث يقوم معبد الرهبان المتوقفين La Grande Chartreuse

هنالك تنهض الجبال عاتية وقد كستها الغابات يرتفع إليها البصر فيعود محملاً بأعمق الآيات ترددها النفس بذكر الله . هنالك يملأ القلب شعور دينى بتفاهة الحياة، وإذا بنا نود أن لو استحلنا إلى مثل دمعة عيسى التى زعم الشعراء أنها استحالت إلى ملاك رحمة وسعت رحابه كل نفس حتى نفس إبليس . هنالك يستقر فى الحواس إحساس بالجمال يتمثل صوراً تأخذ النفس كارهة أو راضية إلى حيث تلتمس أطيب المثل. وما غفل جراى عن شىء

من هذا ، فى خطاباته لصديقه Horau Wolpole لكل ذلك أجل الذكرى

وخالس «جراى» الزمن مرة أخرى فانطلق إلى حيث تنتثر البحيرات الصغيرة بين الجبال فيما يشبه قبلات العذارى على وجه السديم ، انطلق إلى إيقوسيا حيث السكون الرهيب لا تحركه إلا نغمات الناى يرسلها الرعاة من أعلى الجبال فتنساب بين الوديان أو تطفو على سطح المياه وكأنها من روح الله ، ونفذ كل ذلك إلى قلب « جراى » فقيد « بيومياته » biary التى طالما باركناه أن تركها لنا دليلاً يأخذ بنا إلى حيث نرجو أن نجد الجمال

وكرت الأيام و « جراى » يطهر من نفسه إلى أن بلغ ولعه بالمثل الأعلى تلك الدرجة الجميلة التى نجدها عند الكثير من هؤلاء المطهرين Puritanis الذين لا تزال انجلترا تغص بهم رغم وفرة من ترحّل منهم إلى أمريكا حيث وجهوا النفوس هذا الاتجاه الذى أنتج أمثال « نلسن » ممن بلغ بهم الإيمان بالمثل الأعلى مبلغ السذاجة المقدسة

وما كان جراى بحاجة إلى روسو ليحنو على الضعفاء أو ليقدر سذاجة النفوس قدرها ، وفى نفسه وفى ملابسات تلك النفس ما يقوده إلى حيث انتهى فى تلك المرثية الخالدة التى كفلت للشاعر الخلود، والتى لم تكد تنشر سنة ١٧٥٠ حتى تناقلتها جميع الألسن، وحتى أخذت الأمهات أطفالهن يحفظنها كما نفعل نحن ببعض آيات كتابنا الكريم ، وأكبر ظنى أنه حتى اليوم لا تزال تلك القصيدة أكثر القصائد انتشاراً بين القوم فى جميع أنحاء انجلترا

قال « جراى » :(١)

١ — دق ناقوس المساء ينعى النهار المدبر، وانسابت القطعان متهادية ثاغية خلال المروج ، واتخذ الفلاح المضنى سبيله إلى مأواه فى خطى متثاقلة مخلفاً العالم لى وللظلام

٢ — وتضاءل ما بقى من ضوء خفيف ، فامحت من البصر آفاق الطبيعة ، وأخذ سكون رهيب يسود الفضاء فلا تسمع إلا الجعل يرسل دوى أجنحته فى كل فج ، أو أجراس القطعان تنهنه ما انبسط من مروج تنشر فوقها غفلة الكرى

٣ — أو نعيق البومة المحزن يحمل إليك من برجها النائى وقد كساه متسلق النبت ما ترسله من شكوى إلى القمر إذ سرّ بمأواها العتيق الموحش عابرو السبيل فأقضوا منها المنام

٤ — تحت هذا النشم وإلى ظلال هذا السرو سكن أجداد القرية فى نومهم الأخير، كل فى قبره الضيق حيث ترتفع تلك الكثبان النهارة وقد علاها ضعيف الحشائش

٥ — رقدوا فى متواضع مضاجعهم رقدتهم الأبدية، فما لنسمات الصباح المعطرة، وما لتغريد الطير يرسله من أسقف أكواخ العشب، وما لصياح الديك النافذ ، أو لما يتردد صداه من صوت البوق ، أن يوقظ لهم رقدة

٦ — رقدوا فما للموقد أن يرسل إليهم بعد اليوم لهيبه؛ وما لربة بيتهم أن تخف إلى مهامها إذا جاء المساء ، وما للأطفال أن يهرولوا إلى أمهاتهم يتمتمون إليهن رجعة أبيهم، ومالهم أن يتسلقوا أرجله يتناهبون ما يتقاتلون عليه من قبلات .

٧ — لكم تساقط الحصاد تحت ضربات مناجلهم ! ولكم شقت أسنة محاريثهم ما شقت من جوف الغبراء! بأى نشوة كانوا يسوقون قطعانهم إلى الحقول ؟ وبأى يسر كانت أشجار الغابات تتأملى لهم من هاماتها ما أعملوا فيها معاولهم القوية ؟!

٨ — ما للكبرياء أن تحقر جهودهم المنتجة ومسراتهم العائلية وذكرهم المغمور ؟ وما لعظماء هذه الحياة أن يبتسموا احتقاراً لصغار المهام التى شغلوا بها أيامهم ؟

٩ — وألقاب الفخار ، وأبهة السلطان ، وكل ما يمنحه المال والجمال . كل هذا ساعة الحتف له بالمرصاد ، إذ أن سبل المجد لا تقود إلى غير القبر !

١٠ — وأنت أيها المتغطرس : ليس لك أن تلومهم إذا لم تر الأسلاب قائمة فوق قبورهم تخلد ذكراهم حيث تتردد أناشيد النصر فى القباب الممتدة ، وتحت الأقواس المزينة بالتماثيل ، حاملة نغمات المديح ...

١١ — وهل لأجل الأوانى نقشاً ، أو لأنطق التماثيل بالحياة، أن ترد إلى مأواه ما تصاعد من نفس ؟ وهل لأصوات الفخار أن تبعث الحياة فى صامت التراب ؟ وهل للعاق أن يلين من مسامع الموت البارد القاسى ؟ !

(١) الأرقام تدل على عدد المقطوعات المتسلسل . وقد يتصل الكلام بين مقطوعة وأخرى على نحو ماترى فى التضمين بين الأبيات فى الشعر العربى ولا تقرأ كل مقطوعة على أنها مستقلة

١٢ — من يدرينا لعل فى هذه البقعة المهملة قلباً كانت تسكنه أنوار السماء ؟ أو يداً كانت تستطيع أن تأخذ بصولجان الملك ، أو توقظ الناى إلى حد الإلهام ؟

١٣ — ولكن العلم لم ينشر أمام أبصارهم صفحاته الطويلة التى أغناها بأسلاب الزمان. فلقد أطفأت برودة الفقر نبل حماستهم، وجمدت مجرى العبقرية فى نفوسهم .

١٤ — كم من جوهرة نقية الشعاع صافيته ، ظلت محبوسة فى أعماق المحيط ؟ وكم من زهرة تتورد بعيداً عن الأبصار ، ثم ترسل عبيرها هدراً إلى بيداء الفضاء ؟

١٥ — من يدرينا ، لعل هنا يرقد « هامدن » قريته وقد نبت بقلب جسور لصفار الطغاة بريفه ، أو « ملتون » آخر صامتاً عارياً عن المجد ، أو « كرومول» ثانٍ نقى اليد من دم وطنه .

١٦ — أما تحريك أيدى النواب بالتصفيق ، وأما احتقار صيحات التهديد يرسلها الجائعون والمتألمون ، وأما در الخير على الأرض المتهالة ، وأما قراءة تاريخ الشعوب فى أعين أهلها ...

١٧ — فذلك ما حرمهم منه القضاء . على أنه لم يمنع فقط حميد خصالهم عن أن تزهر ؛ بل منع أيضاً جرائمهم من أن تستفحل . منعهم أن يخوضوا الدماء إلى العروش وأن يسدوا منافذ الرحمة عن العباد

١٨ — منعهم أن يخفوا وخزات الضمير إذا أخفيت الحقيقة التى يعلمونها ، أو أن يطفئوا جمرة الخجل البرىء . منعهم أن يلتمسوا المنار من آلهة الشعر يضرمون بها أضواء المباخر التى يكدسونها فوق مذابح الكبرياء والرفاهية

١٩ — عاشوا بعيدين عن المعارك المزرية التى تتركها الجماهير المتوهة فما ضلت بهم رغباتهم المتواضعة . عبروا وادى حياتهم الوارف البعيد عن الجلبة بخطى صامتة مطردة

٢٠ — على أنه حفظاً لعظامهم أن تهان ينهض بالقرب من هذا المكان تمثال ضئيل تزينه قوافٍ خشنة وتماثيل ممحوة الصور . ينهض هذا التمثال ليستدر عابر السبيل واجب الزفرات

٢١ — أسماؤهم وأعمارهم خطتها آلهة مقلة من آلهة الشعر لتكون لهم بمنزلة المجد والرثاء فانتثرت حولهم النصوص المقدسة تحدث حكيم الريف كيف يموت

٢٢ — إذ ما من نفس تحس أنها ستسلم فريسة إلى النسيان وتُسلِم تلك الحياة السارة المقلقة معاً، أو تترك تلك الآفاق الدفيئة آفاق الضوء دون أن تلق إلى الوراء نظرة الحسرة ، نظرة الرغبة المتباطئة ...

٢٣ — فالنفس الراحلة تسكن إلى صدر محبوب ، والأعين المغلقة تستدر دموع الوفاء ؛ ومن أعماق القبور يصيح صوت الطبيعة كما لا يخمد الوميض فيما يخلف من رماد

٢٤ — أما أنت وقد حرصت على هؤلاء الموتى المغمورين فقصصت نبأهم فى شعرك الساذج ، فمن يدرينا لعل نفساً قريبة إلى نفسك تقودها الوحدة إلى السؤال عن مصيرك

٢٥ — ولعل شيخاً أبيض الرأس من شيوخ الريف يجيب :

— طالما رأيناه عند انبلاج الصباح يكتسح بخطاه السريعة قطرات الندى مهرولاً إلى لقاء الشمس فوق القمم الخضراء

٢٦ — وهنالك إلى جذع البلوط المتمايل — البلوط الذى يرسل جذوره المختلطة عالية بالمرتفعات — كان يستلقى ماداً كل جسمه تحت أشعة الظهيرة ثم يطيل النظر إلى الجداول تخر بجواره .

٢٧ — طوراً يهيم بتلك الغابات وعلى شفتيه ابتسامة السخرية وقد أخذ يردد أحلام الطريق ، وطوراً ينطلق فى سبيله مقوس الظهر شاحب اللون من البؤس كمن تخلى عنه أحبابه أو ذهبت بعقله الهموم أو حطم نفسه حب عاثر

٢٨ — وفى ذات صباح تفقدته فلم أجده لا على التل المعهود ولا على حافة البرارى ولا إلى جذع شجرته المحبوبة ، وجاء صباح آخر فما وجدته إلى جانب الجداول ولا بقمة التل بل ولا بالغابة .

٢٩ — وفى اليوم التالى رأيناه محمولاً فى طريقه إلى « القبر فى حفل الموت وأناشيد الثناء تصحبه . أدن واقرأ (ما دمت تستطيع القراءة) تلك المرثية المنقوشة على الحجر تحت أشواك هذه الشجرة العتيقة » :

ما على القبر

١ — تحت هذه الأرض يرقد فى راحته الأخيرة شاب جمله المجد كما جهلته الحظوظ . كان نصيبه من العلم نصيباً متزناً بينما وهبته الأحزان بيسمها

٢ — واسعةً كانت طيبةُ قلبه، ومخلصة كانت نفسه، وبقدر تلك الطيبة وذلك الإخلاص كافأته السماء

لقد جاد على البؤساء بكل ما يملك، وما كان يملك إلا دممة . أنالته السماء كل ما تمنى ، وكل ما تمناه كان صديقاً

٣ — لا تحاول أن تفض النلاف عن حسناته، أو أن توقظ سيئاته من مكمنها المخيف . فقد اجتمعت الحسنات إلى السيئات متساوية فى أمل مضطرب مفزع : أمل من أوى إلى أحضان أبيه، أحضان ربه

* * *

ولو علم « جراى » يوم أن كتب تلك المرثية الخالدة أنها ستفتح له أبواب المجد إلى الأزل لعلم أن فناه ما كان للمجد أو للحظوظ أن تنساه ، وفى نفسه هذا المزيج العجيب من قوة الفكر وروعة التصور ورقة العاطفة

تلك الرقة التى حملته على أن يحصر كل ما يتمنى أن تهبه السماء فى صديق . وفى الحق أنى لا أدرى أنبل من نفس تستطيع أن تخلص الصداقة ، والصداقة أبعد المشاعر عن غرائزنا التى نجدها عادة فى أسس كل شعور قوى .

قهرت الصداقة الحب فى نفس جراى الصافية الرقيقة ، بحيث لو أننى أردت أن أضع على لسانه عبارة عن صداقته لهوراس ولبول، لما وجدت خيراً من كلمة مونتين montaigne الخالدة، وقد فقد صديقه La Beotie لابويسيه : « لقد كنا نقتسم كل شيء مناصفة ، حتى فقدته فأصبحت اليوم لا أصيب خيراً إلا أحسست أنى أختلس من صديق العزيز النصف الذى كان يؤول إليه » .

وأما اليوم ، فليس لنا إلا أن ندعو الله أن يبارك تلك الأرواح الطاهرة فى ملكوت رحمته .

محمد سرور

من وحى الربوات

لَيْـــلَى

للأستاذ ابراهيم العريض

قلتُ يوماً لابنتى ليلَى ـ وقدْ أخذَتْ ديوانَ قيسٍ تتغنَّى
فكأنَّ الحسنَ أولاها يداً فأرادتْ باسمهِ أن تتجنَّى ـ
« طِبتِ يا ليلاىَ نفساً فافهمى ليس كالشاعرِ فى الأرضِ معنَّى
هُوَ من أحلامهِ فى جَنَّةٍ فإذا حدَّثَ عنها قيلَ جُنَّا
كلُّنا طائرُهُ فى قفصٍ إنما يُطلِقُهُ المجدودُ منَّا
لوْ درَى الضاحكُ فى سَكرتهِ أنه يشرَبُ دمعاً لتأنَّى
والليالِى يتطاولنَ إذا سقطَ النَّجمُ الذى نوَّرهُنَّا
قُمْنَ فى عافيةٍ من حُبِّهِ يتباهَيْنَ به ما بَينهنَّا
يحسَبُ الناسُ جَواهُ أدباً قلَّ مَنْ شاركه فيما أجنَّا
ثمَّ يَطوِى ليلهُ صُبْحٌ فلا هو للحبِّ ولا من حَبهُنَّا »

* * *

فأجابتنى غناءً فى الصِّبا بالذى حيَّرَ من أكبرُ سنَّا
« لا تسلنى ـ فوجودى عدمٌ ـ طائرُ الخلدِ هنا كيف اطمأنَّا
هُوَ يهفو لجمالٍ ربما خفيَتْ آثارُهُ فى الكونِ عنَّا
فإذا شاهدَهُ فى روضةٍ أوسحابٍ مثَّلَ الإحساسَ فنَّا
والذى يُطرِبُنا من نَغَمٍ مستَرِقًّا كلَّما الليلُ أجنَّا
لم يكنْ غيرَ نِياطِ الحبِّ فى قلبهِ كالوترِ الحسَّاسِ رنَّا
هُوَ فى نَشوَتهِ يُفضى بها نَغَماتٍ تملأُ الآفاقَ حسْنا
لا تقُلْ دُنياهُ ظلٌّ زائلٌ فشعاعُ الحبِّ فيها ليسَ يَفنى
لوْ تجلَّتْ قدرةُ الخلاَّقِ فى لفظةٍ صاغَ لها الشاعرُ معنى »

* * *

وانحنتْ فوقَ يدى تَلثِمُها خجلاً حين رأتْ رأسىَ يُحنى
ثمَّ قالتْ وهْىَ تلهو بالذى قلدتْهُ دونَ أن تحملَ منَّا
حسبُ عِقدى أن حوَى واسطةً ما لها فى الدُّرِّ صِنوٌ فتُثنَّى
عِشتَ للشِّعرِ ولى يا أبتى أنتَ للشِّعرِ ولى ما أتمنَّى

(البحرين) ابراهيم العريض